علم البلاغة بنك الناقد الأدبي

أ. د. عبد الملك بومنجل*

يتأسس هذا البحث على فرضية يسعى إلى إثبات صحتها، وهي الارتباط الحتمي بين النقد الأدبي والبلاغة، وهو ارتباط قوامه عنصران هما: أن حاجة الناقد الأدبي إلى الإلمام بعلم البلاغة واستثمار مادته هي حاجة ضرورية لا اختيارية، وأن البلاغة هي ثمرة طبيعية لجهود النقاد يعود النقاد إلى استثمارها من جديد في جدلية أخذ وعطاء لا تنقطع. وهذا المعنى هو الذي قصدناه من عنوان المداخلة؛ إذ البلاغة، في تصورنا، بمثابة بنك معلومات دلالية وجمالية، يصب فيه النقاد وعلماء اللغة والأدب نتائج آرائهم وأبحاثهم، وفق ضوابط علمية اصطلاحية توافقية معينة، ثم يأخذ منه هؤلاء النقاد والعلماء في الأزمان المتلاحقة هذه النتائجَ ـ الأصولَ ـ القوانينَ، ليستعينوا بها في أداء مهمتهم النقدية أو العلمية، كل بحسب حاجته وسياق بحثه.

ونسعى، في أثناء هذه المداخلة، إلى تفنيد فكرة شائعة في أوساط بعض الباحثين المعاصرين مفادها أن البلاغة علم معياري قديم بني في ظل فلسفة تغلب الثبات على التحول والقاعدة على الإبداع والمثال على الحرية، وأن النقد الأدبي قد خطا الآن خطوات بعيدة، وحدثت له تحولات عديدة، ونشأت به وفيه نظريات ومناهج كثيرة، ما أبعد الشقة بينه وبين البلاغة، وجعل حاجته إليها قليلة وعلاقته بها محدودة.

وسبيلنا في ذلك ملاحظة العلاقة الطبيعية التاريخية بين البلاغة والنقد الأدبي من حيث المنشأ وموضوع العمل وغايته ووسائله، حيث الاشتراك بين الحقلين واضح وأكيد في استهداف معرفة البنية الدلالية وإدراك القيمة الجمالية والتواصلية للكلام، مهما تنوعت مناهج النقد وتغيرت، وحيث يقتصر الفرق بين الحقلين في كون النقد الأدبي فنا يستدعي الذوق أساسا، ويقوم على الاجتهاد الحر للأفراد بما يؤهله للتطور والتحول، وكون البلاغة علما يستدعي الإحاطة، وهو رصيد

* جامعة سطيف2 .

المنارة للاستشارات
ww

اجتهاد الجماعة، ويقوم على الانتقاء وتجميع العناصر وتقعيد القواعد؛ فهو بطيء الحركة والتطور.

1. في مفهوم البلاغة والموقف منها

حين يُذكر مصطلح =البلاغة+ يسرع إلى بال الطلبة والباحثين مفهوم العلم الذي يسمى =علم البلاغة+، وعموده جملةُ قواعدَ ومعاييرَ يُنصَح بالتزامها في إنشاء الكلام حتى يكون محل إفهام وإقناع وإمتاع وتأثير؛ وهي معاييرُ تم لها الاكتمال والاستقرار، فصارت علما ثابت القوانين يتفرع إلى علوم ثلاثة هي المعاني والبيان والبديع، ما على المعلم إلا أن يستوعبها بأبوابها وفصولها، وتعريفاتها وشواهدها، ثم يلقنها للطلبة كما هي، كما لو أنها علم دقيق ثابت مستقر.

وبناء على هذا الفهم تتأسس انطباعات ومواقفُ من علم البلاغة بعيدةٌ عن الإنصاف، واقعة تحت إغراء الحداثة؛ أولها أن البلاغة علم قديم، وثانيهما أنه علم معياري، وثالثها أنه علم جامد يتعارض مع طراوة الفن وحرية الإبداع، ورابعها أنه علم تجاوزه الزمن وجرفته رياح الحداثة إلى زاوية العلوم الهامشية التي لا يضر الجهل بها ولا ينفع الاعتماد عليها، وخامسها أن النقد ومناهجه ونظرياته هو الذي ينبغي أن يُقبِل عليه الطالب والباحث في زمن الحداثة؛ لأنه هو العلم المتجدد المتحول، المنفتح على كشوف الحداثة وإنجازات الحضارة، خلافا لهذه البلاغة المعيارية المتجمدة القديمة !

وينتج عن ذلك، وقد نتج فعلا، أن يزهد الطالب في الجامعة في درس البلاغة، وأن ينفر الأستاذ من تدريسها، ومن ثم من الإحاطة بها والاستزادة من أسرارها، تهوينا من شأنها، وتحرجا من أن يكون مدرِّسا لعلم قديم تراثي معياري متجمد؛ وأن يتخرج طلبةٌ لا يتذوقون الكلام البليغ، ولا يقدرون على التعبير الفصيح، ولا يستطيعون إنشاء مقال على شروط السلامة اللغوية ناهيك عن شروط البلاغة والبيان؛ وأن يتصدى أساتذة باحثون لمَهمة النقد وهم محرومون من الذوق، جاهلون بأسرار الجمال الأدبي، التي هي في اصطلاح القدامى =أسرار البلاغة+؛ يتحدثون في =النظم+ و=الأدبية+ و=الشعرية+ و=جمالية التلقي+..، وهم يجهلون من علم المعاني ما يفرقون به بين نظم ونظم، وبين خطأ وصواب، وبين نقيصة وفضيلة، وبين نمط أدنى ونمط أعلى.

المنارة للاستشارات
ww

ويجهلون من أسرار البيان وطرائف البديع ما يهتدون به إلى التذوق الدقيق والإدراك العميق لأدبية الأدب وشعرية الشعر وجمالية الفن !

يفيدنا في هذا المقام أن نستحضر ما قاله مازن المبارك في تمهيد كتابه =الموجز في تاريخ البلاغة+:

=لم يكن ضيقي حين كلفتني كلية الآداب تدريس مادة البلاغة بأقل من سروري بذلك التكليف؛ فلقد سُررت لأن هذا التكليف جاء منسجما مع ما في نفسي من تقدير للبلاغة العربية، وأما ضيقي فللفكرة التي رسبت في أذهان طلابنا وناشئتنا عن البلاغة العربية.

ولست أكتم أنني لاقيت الكثير من العنت حتى استطعت ـ إلى حد ما ـ أن أقتلع من أذهان الطلاب ما استقر فيها من أن البلاغة مادة =متْحفيّة+ وأن دراستها اليوم والرجوع إليها، لا يعني أكثر من جولة بين الآثار القديمة، أو وقفة بين الأطلال.+(1)

=البلاغة مادة متحفية+: هذا ما حكمت به العدالة الظالمة، والحداثة الناقمة، على البلاغة العربية! فهل الأمر كذلك؟ هل البلاغة هي حزمة قواعدَ ومعاييرَ جامدة عتيقة؟ وهل هي علم قديمٌ حقه أن يكون في المتحف، وواجبنا أن نزوره بين الحين والحين كما تُزار الآثار القديمة؟ لنعدْ إلى الدلالة الأصلية لمصطلح =البلاغة+:

=البلاغة+ من =البلوغ+ وهو الوصول؛ وهي مصطلح على الصفة التي يكون عليها الكلام إذا استوفى شروط الوصول إلى السامع أو المتلقي وصولا تتحقق به أغراض الكلام من الإفهام والإقناع والتأثير وما إلى ذلك. لذلك عرّفها العسكري بقوله:

=البلاغة كلّ ما تبلّغ به المعنى قلبَ السامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن.+(2)

البلاغة إذن هي صفة الاقتدار على تمكين اللغة من أن تمارس فعلها المنوط بها أحسن ممارسة، بحيث تتحقق بهذه الممارسة مقاصدُ المتكلمين من توصيل للمعنى بحقه، ومن استحواذ على سمع المتلقي وفكره وقلبه، ومن حمله، تبعا لذلك، على التأثر والاستجابة للغرض

(1) مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، دار الفكر، دمشق، د.ت، ص33.
(2) أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت، ط1، 2006م/1427هـ، ص16.

المنارة للاستشارات
ww

الذي قُصِد به الكلام ابتداءً.

البلاغة هي وقوع المعنى في قلب المتلقي مُضافا إليه وقوع القلب في فتنة المعنى. هي، باختصار، الحال التي يكون عليها الكلام حين يتحول إلى سلطة حاكمة وفتنة آسرة؛ وليست هذه الحال سوى جملة الصفات التي يطلَق على الكلام حين اجتماعها أوصافُ =الحسن+ و=الجودة+ و=الجمال+.

البلاغة، إذن، هي جمال الكلام. و=علم البلاغة+ هو علم جمال الكلام؛ فإذا اصطلحنا على الكلام المتميز عن الكلام العادي العامي بمصطلح =الأدب+ قلنا: إن =علم البلاغة+ هو علم جمال الأدب. هذه هي البلاغة في أصل دلالتها اللغوية والاصطلاحية عند العرب. هي بلاغة الذوق وإدراك الجمال، وحسن التمييز بين طبقات الكلام، والاهتداء إلى لطائف الصنعة وأسرار البراعة، وكشف العلة في سحر الكلام الجميل وفتنة اللغة البديعة؛ هي اجتماع التذوق لجمال الأدب مع العلم بأسراره وقوانينه.

البلاغة في أصلها الذي كان، وجوهرها الذي به كانت وينبغي أن تكون، هي أدبية الأدب، وشعرية الشعر، وخطابية الخطبة، وقصصية القصة، ومقالية المقالة، ورسالية الرسالة، ومسرحية المسرحية، وجمالية كل جنس من أجناس الكلام؛ وعلم البلاغة هو العلم الذي ينبغي أن يشمل كل هذه الفنون بالدراسة المتذوقة لجمالها، المميزة لخصائصها، المدركة لقوانينها، المنفتحة على ألوان الإبداع والإضافة فيها.

البلاغة هي العلم الذي اشتغل به الجاحظ في البيان والتبيين، وابن طباطبا في عيار الشعر، وقدامة في نقد الشعر، والآمدي في الموازنة، والجرجاني في الوساطة، والعسكري في الصناعتين، وابن رشيق في العمدة، والخفاجي في سر الفصاحة، وعبد القاهر في =دلائل الإعجاز+ و=أسرار البلاغة+، وابن الأثير في المثل السائر، قبل أن يتحول على أيدي السكاكي والرازي والقزويني ومن نهج نهجهم إلى جملة قواعدَ ومعايير، وشواهدَ وتعاريف، وأقسام وتفاريع، ومصطلحات ومفاهيم، توحي لمن لم يتأمل سياق وضعها وغايته بأن البلاغة تحولت إلى قواعد معيارية ثابتة، وقوالب منطقية جافة جامدة، وأنها شيء آخر غير النقد

المنارة للاستشارات
ww

الذي بقي يبحث ويجتهد ويكتشف ويتكيف مع المستجدات.

2.البلاغة بنت الناقد الأدبي

إذا كانت البلاغة هي صفة الكلام المبين المقنع المؤثر الذي يتوسل إلى غايته بالجمال، وكان علم البلاغة هو العلم الذي يبحث في أسرار البلاغة، فيجمعها من مظانها مما تراكم من خبرات أولي الذوق والعلم بأسرار اللغة وخصائص تركيبها ومذاهب المتكلمين بها في الدلالة على أغراضهم، فيدونها في قواعد ومعايير، ويرتبها في فنون وأبواب وفصول؛ فإنها لا تكون بذلك إلا بنتا للناقد الأدبي، لا بعدّه فردا بعينه توكل إليه مهمة إنشائها، ولكن بالمفهوم المجرد المطلق للناقد معبرا عن المهمة الجوهرية التي يضطلع بها، وهي النظر في الكلام من جهة كفايته التواصلية (المصطلَح عليها عند العرب بمصطلح =البلاغة+)، وتقدير منزلته في البلاغة، واكتشاف أسرار هذه البلاغة، وتحليل مذاهب البلغاء في تشكيل العبارة وأداء الدلالة، وقد يمتد به النظر إلى مسائل أخرى نظرية أو تطبيقية؛ كالنظر في عوامل النبوغ، والموازنة بين مذاهب القول، واستنباط أحوال الأديب وأوضاع زمانه ومكانه من خلال أعماله.

فالبلاغة بعدّها صفة للكلام البليغ سابقة على النقد، إذ هي موجودة في الكلام قبل أن ينظر فيه الناقد. ولكن النقد سابق على علم البلاغة، إذ علم البلاغة وليد النظر في الكلام البليغ لاكتشاف بلاغته ومعرفة أسبابها؛ وهي أسباب (أو قوانين) لا تُعرَف دفعةً واحدة، بل يُتدرّج في معرفتها، وتتراكم نتائجها، ويحصل قدرٌ من الإجماع عليها، ثم تُدوّن على أنها علمٌ يتأسس ويتطوّر وينمو: علمٌ لجمال الكلام كيف يكون وما هي أسبابه وأشكاله؟

والناقد الأدبي هو المصطلح المعبر به عن الناظر في الكلام البليغ. فعلم البلاغة هو إذاً ثمرة نظر الناقد، وحاصل تأملاته ورصيد اكتشافاته، أو هو، بتعبير آخر، بنكُ ملحوظاته ومعلوماته ومستنبَطاته ومقرَّراته. ولا نتحدث هنا عن الناقد الفرد؛ فليس من حق الناقد المفرد أن يضع للبلاغة بنكا يملؤه ليأخذ منه غيرُه، بل نتحدث عن الناقد بالمفهوم المجرد؛ أي عن جملة ما يصل إليه النقاد من نتائج.

ومن ينظر في تاريخ البلاغة العربية لا يجد الأمر إلا كذلك. ينظر

المنارة للاستشارات
ww

أهل الذوق والخبرة في قصائد الشعراء وأقوال الخطباء وحكم الحكماء، فيلفت نظرهم منها مواضعُ تثير الإعجاب إطرابا للسمع أو إمتاعا للعقل وإشباعا للفهم أو إثارة للخيال أو مداعبة للوجدان، فيهديهم تأملهم إلى اكتشاف سبب حصول المزية التأثيرية في تلك المواضع، فيعلنون للناس اكتشافهم ويضعون له عبارة تصير مصطلحا، ويجمعون له فيما يقرؤون نظائرَ فتتحدد أشكاله وضروبه ومنازله في البلاغة.. وهكذا تجتمع الاكتشافات والمصطلحات والقواعد والمقاييس، فيُضم بعضها إلى بعض بعد تباحث وتجادل وغربلة وتمحيص، لتصير علما قائما بذاته، تتوزع عناصره أول الأمر على علمين: هما علم المعاني وعلم البيان، ثم يُضم إليهما ـ جريا على سنة النمو والتطور والتدرج في الاكتشاف ـ علم ثالث هو علم البديع: العلم الذي اختير له مصطلح كان مستودعا لأساليب شتى منها ما صار ينتمي إلى علم المعاني كالالتفات، ومنها ما صار يُدرج ضمن علم البيان كالاستعارة، ثم استقل بمباحثه وعناصره الأسلوبية المتصلة بغايات تحسينية تزيينية لفظية ومعنوية.

ولا أدلّ على ذلك من أن نشأة علم البلاغة عند العرب ارتبطت بجهود البحث في الإعجاز الأسلوبي للقرآن الكريم. فمنذ =مجاز القرآن+ لأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت208هـ) ظلت البحوث في إعجاز القرآن ولغته وبلاغته تترى موسعة للنقد الأدبي آفاقه، مؤسسة لعلم البلاغة مادته وموضوعه وعناصره، مضيفة إليه مع كل بحث نظرة جديدة أو مصطلحا جديدا أو بابا جديدا من العلم أو عنصرا جديدا من العناصر المشكلة لفنون البلاغة، إلى أن وصل البحث مدى من النضج والعمق عند عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ)، فانفتح لعلم البلاغة بابٌ من العلم لم يك مفتوحا إلا بمقدار، وصار علم المعاني أهم أركان علم البلاغة وأدخلها في تقويم الكلام، وقد انتظم هذا العلمَ نظريةٌ هي بلاغية نقديةٌ في آن، جاء بها ناقدٌ تنمحي في أعماله الفواصل بين البلاغة والنقد الأدبي؛ فهو في =أسرار البلاغة+ و=دلائل الإعجاز+ يمارس مهمة الناقد بامتياز: ينظر ويتأمل، يتذوق ويعلل، يفصل ويحلل، يقارن ويستنبط ويؤصل؛ ولكنه في الوقت ذاته ينجز عملا هو في الصميم من علم البلاغة: يضع القواعد، ويحدد المقاييس، ويكتشف القوانين، ويضرب الأمثلة، ويضع لكل أسلوب مصطلحه مفصلا أشكاله مُدرجا إياه في بابه من أبواب البلاغة؛ فترك بذلك عدةً متكاملة أمكن

المنارة للاستشارات
ww

جمع شقها الأول في =علم البيان+ وشقها الثاني في =علم المعاني+.

3.البلاغة بنك الناقد الأدبي

إذا كانت المَهمّة الأولى للناقد الأدبي هي إدراك أدبية الأدب وكشف قوانينها ودراسة نماذجها وتحليل نصوصها، فإن ذلك يعني أن علاقة الناقد بالبلاغة هي علاقة ضرورة لا اختيار. علاقة عطاء استلزامي وأخذ ضروري. علاقة شبيهة بعلاقة صاحب المال بالبنك: يضع فيه رصيدا معينا لا يزال يضيف إليه ويأخذ منه لحاجاته؛ فما يحصله يضعه فيه، وما يضعه فيه يستثمره في بعض أعماله، وهكذا تستمر علاقة العطاء والأخذ متأثرة بمدى الإضافة ومقدار الأخذ؛ فكذلك الناقد: يكتشف أسرار البلاغة فيستودع ما اكتشف بنكا هو علم البلاغة. ويمارس ألوانا من النقد، فيعمد إلى البنك الذي أودع فيه ما اكتشف من أسرار وقوانين، فيستثمرها فيما يمارسه من النقد تحليلا للنصوص وتنظيرا للإبداع. وتستمر علاقة الناقد بالبلاغة علاقة عطاء وأخذ متأثرة بمدى الإضافة غير متضررة بمدى الأخذ؛ وهذا هو الفرق الوحيد بين البنك الذي يودع فيه المال والبنك الذي يودع فيه علم البلاغة، إذ المال ينفد بالاستعمال أما العلم فلا ينفد، ولكنه يعجز عن مواكبة المستجد إذا لم يُزوَّد بأبواب أخرى من العلم.

إن البلاغة والنقد أخوان توأمان وُلدا معا، وترعرعا معا، وشبا معا حتى استويا على عودهما علما له أصوله وقوانينه، وله فنونه وأفانينه. النقد إدراك البلاغة في الكلام البليغ، وتمييز طبقات البلاغة وكشف أسرارها ورسم قوانينها وتحليل نماذجها وتقويم أعمالها وتوجيه الناشئة إلى سبيل الوصول إليها. لولا البلاغة ما كان النقد، ولولا النقد ما كان علم البلاغة، وبغير البلاغة لا يقوم نقدٌ وبغير علم البلاغة لا يستقيم؛ فعلم البلاغة هو اكتشاف الناقد يظل ينمو ويتكاثر، وهو رصيده وحصيلة اجتهاده واكتشافه، يظل ينير له الطريق ويهديه. وليس النقاد غير أولئك الباحثين في أسرار البلاغة، المكتشفين قوانينَها واحدا بعد آخر، المميزين بين أجناس الكلام وطبقاته، الموازنين بين مراتب الأدباء والبلغاء ودرجاتهم بناء على ذلك.

4.علم البلاغة ومناهج النقد

لا يمكن للناقد أن يستغني عن علم البلاغة، لأنه إذا استغنى فإنما

المنارة للاستشارات
ww

هو يستغني عن خبرات ذوقه وثمرات تأمله في الكلام.

لا يمكن أن للمناهج النقدية أن تحل بديلا عن علم البلاغة، لأن علم البلاغة ليس منهجا يُستبدَل إذا ظهر ما هو أفضل منه، وإنما هو رصيدٌ يتراكم من خبرات جميع أهل الذوق والخبرة أيا تكن مناهجهم في البحث ومذاهبهم في النظر.

إن المناهج النقدية الحديثة تتعامل مع الأدب لمطلبين أساسين: اكتشاف الدلالة، واكتشاف الجمال. أما المطلب الأول فقد يُكتَفى فيه بطلب دلالة النص على مضمونه، وقد يُتَعدى فيه إلى طلب دلالة النص على سياقه. وأما المطلب الثاني فقد يُكتفى فيه بطلب اكتشاف الجمال القائم في لغة النص، وقد يُتجاوز إلى اكتشاف الجمال الكامن في فلسفته ومضمونه. فهل المناهج النقدية الحديثة مستغنية عن علم البلاغة في كفاحها لتحقيق هذه المطالب؟

أما الدلالة فلا تُدرَك إلا بالإحاطة الوافية بعلم المعاني لأنه السبيل إلى معرفة خواص التراكيب ومذاهب القول في أداء المعاني، والإحاطة الوافية بعلم البيان لأن المعاني كثيرا ما تؤدى بطريق المجاز، فلا سبيل لمن يجهل طرائق أداء المعنى بطريق المجاز إلى إدراك الدلالة وتأويل الرموز. وأما الجمال فلا سبيل إلى إدراكه في الكلام إلا بعلم البلاغة، إذ ليس علم البلاغة، كما قررنا، سوى علم لجمال الكلام.

يحتاج صاحب المنهج البنوي إلى معطيات علم البلاغة لأن بنية الأدب لغوية أساسا، وقد جاء علم البلاغة، لا سيما علم المعاني، بكثير من الوصف لهذه البنية ولدلالة كل عنصر فيها.

ويحتاج صاحب المنهج السيميائي إلى معطيات علم البلاغة، لأنه مهمته العبور من اللفظ إلى الدلالة، ومن المعنى إلى معنى المعنى، ومن الدلالة المجازية البسيطة إلى الدلالة الرمزية العميقة؛ وكل ذلك إنما يُستفاد فيه من معطيات علم البلاغة، معانيَ وبيانا وبديعا.

ويحتاج صاحب التأويل إلى المقدمات الضرورية لفهم الكلام وإدراك طرائقه ومذاهبه والوعي بأدواته وأساليبه، ثم الانطلاق منها وتأسيسا عليها إلى استثمار علوم شتى وشحذٍ لحد الذكاء، في سبيل تأويلٍ مسئول له من المعقولية سند ومن الموضوعية نصيب؛ وما تلك المقدمات الضرورية إلا المعطيات التي يقدمها علم البلاغة.

المنارة للاستشارات
ww

أما صاحب المنهج الأسلوبي فما إلا بلاغي بزي حديث مهما توسع في التحليل وأبدع في الاصطلاح، لأنه باحث في شئون الأسلوب، وشئون الأسلوب إلا الموضوع الأول والأخير لعلم البلاغة.

من الغرور، إذاً، ومن التنكر للفضل والحق، ومن مجانفة الصواب ومجانبة الموضوعية، أن يزعم الزاعمون أن المناهج النقدية قد فتحت أبوابا من العلم تنأى بها أشواطا عن علم البلاغة، وتزوّدها من إمكانات الفهم والتحليل والوصف ما يُغنيها عن الاستعانة بعلم البلاغة. إن الذي أسس علم البلاغة هم النقاد أنفسهم استثمارا لما خبروه وما استنتجوه. وإن هذا العلم لم يُغلَق بعد بل بإمكان النقاد في كل عصر أن يضيفوا إليه زبدة ما استنبطوه من أحكام صحيحة أو هي موضع إجماع أو قبول على أقل تقدير. وللنقاد أن يختلفوا ما شاءوا بشأن مناهج قراءتهم للخطاب الأدبي، ولكن ذلك لا يصح أن يكون على أنقاض علم البلاغة؛ وهل ينقض الناقد ما بناه بنفسه، وتعب في تأمله وتحصيله وغربلته وتمحيصه؟ يقول محمد عبد المطلب:

=أصبح محتَّماً التصدي لتلك الأصوات التي ترتفع حينا بعد حين بالهجوم على البلاغة القديمة، والعجيب أن معظم هؤلاء المهاجمين إذا احتكموا للدراسة التطبيقية مع الخطاب الأدبي، لا يجدون ما يُسعفهم إلا تلك الأدوات البلاغية القديمة من تشبيه واستعارة وكناية، ومن تقديم وتأخير، وحذف وذكر، وتعريف وتنكير، ومن سجع وجناس وطباق، وربما كانت الإضافة التي نلاحظها على استعمال هذه الأدوات، هو إخضاعها لمسميات طارئة، توهم بالحداثة، كالانحراف والانتهاك والانزياح، ثم إدخالها إلى دوائر الإحصاء العددي، وهي دائرة لم تغب عن القدماء تماما، وإن كانت إشاراتهم لها خاطفة، دون أن يعطوها العناية الكافية التي أصبحت لها في الدرس الأسلوبي الحديث.+[1]

5.علم البلاغة مفتوح للإضافة

ما ذنبُ البلاغة أن =أصبحت حدودا منطقية، وشروحا فلسفية، وصنعة متكلفة، فرأيناها تعابيرَ جامدة، وتعريفاتٍ أقربَ إلى حدود

(1) محمد عبد المطلب، البلاغة العربية قراءة أخرى، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، ط2، 2007، ص9.

المنارة للاستشارات
ww

المنطق أو النحو منها إلى ذوق الفطرة وطبع النفس.+[1]؟

بل ما ذنبُ السكاكي (المتَّهَمُ بتجفيف البلاغة وتحويلها إلى قواعدَ علمية منطقية) أنْ وجد البلاغيين قبله قد اهتدوا إلى رصيدٍ ثريٍّ من أسرار البلاغة وقوانينها، فجمع ذلك الرصيد جمعا منهجيا علميا، ييسر على الطلاب فهمه وتحصيله والإفادة منه؟ وهل ألزم السكاكي مَن بعدَه أن يلتزم تلك القواعد، ويجمّد البلاغة في تلك الحدود، ويُغلق عليها المنافذ دون أي تجديد أو إضافة أو توسيع؟

سواء علينا أقلنا مع مازن المبارك: =لقد فتحنا أنظار طلابنا على البلاغة يوم تحجّرت، ولم ندلّهم عليها يوم كانت ذوبَ الذوق العربي الأصيل، وثوبَ الجمال الفني الرائع البديع... ثم جئنا اليوم - في كلية الآداب - نطلب إليهم دراستها والعناية بها، وما هي في نظرهم إلا جثة محنطة.+[2] أم قلنا مع محمد عبد المطلب إن الهجوم على تحول البلاغة إلى العلمية كان ظالما، =لأنه شرفٌ للبلاغة أن تكون علما، من أن تكون بحوثا مبعثرة، لا تلتزم بخطة، أو منهج يضبط حركتها. فلا نتصور أن تُعاب دراسة ما بأنها أخذت ثوبا علميا منظما، بل الأوفق أن تكون العلمية صفةَ مدح لا ذم، وهو ما تصبو إليه أية دراسة قديمة أو جديدة.+[3]فإن الثابت، في نهاية الأمر، أن البلاغة هي، مثل بقية العلوم الإنسانية، علم لا يوصف بالقدامة أو الحداثة، اختصاصه البحث في قوانين جمال الأدب بمختلف فنونه وأجناسه، يسجل ما اجتمع من رصيد كشوفه ويرتبها ترتيبا علميا منهجيا تُضبط به قوانينُه ومصطلحاته، ولكنه، شأن كل العلوم، لا يغلق الباب في وجه أي جديد أو إضافة أو تعديل يثبت صاحبه وجاهته وصوابه. وإذا كان القدماء قد رصدوا في بلاغتهم قوانين جمالية تعم الشعر والنثر وتكشف بعض دلائل الإعجاز للقرآن الكريم، فإن المطلوب من المعاصرين أن يضيفوا إلى هذه القوانين أو يعدّلوا ما شاءوا، وأن يرصدوا قوانين فنون كلامية أخرى، كالقصة والرواية والمسرحية، إن شاءوا. وإذا كانت البلاغة القديمة كان أكثر عنايتها بالجملة لا النص، فليحدث المعاصرون بلاغة جديدة تعنى

(1) مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ص7.
(2) المرجع نفسه، ص6.
(3) محمد عبد المطلب، البلاغة العربية: قراءة أخرى، ص2.

المنارة للاستشارات
ww

بالنص علاوة على الجملة. أليس ذلك أوفى لحقيقة البلاغة، وأقرب إلى إنصافها وخدمتها، من الزعم بأنها علم قديم ومادة متْحفية وقواعد متحجرة وقوالب جافة، ومن التملص منها باسم النقد ـ وما هي إلا حصيلة جهد الناقد ورصيدُه وبنكُه ـ، ومن تضييق الأفق عليها مصطلحا وغاية لصالح مصطلحات ومفاهيم دخيلة من قبيل =تقنية السرد+ و=شعرية القص+ و=بنية الخطاب+ و=جماليات اللغة+؛ كأنما لا يصح أن نجعل البلاغة مصطلحا جامعا يضم تحت جناحه كل الجهود الهادفة إلى إدراك قوانين الجمال في كل خطاب، بغض النظر عن جنسه؛ فيقال =بلاغة السرد+ و=بلاغة القص+ و=بلاغة الخطاب+.

صحيح أن البلاغة تطلق حيث يُستهدف معنى شروط الحسن والجودة والجمال؛ فهي حكم قيمي لا يقتصر على الوصف، خلافا للتقنية والبنية؛ ولكن كثيرا من الباحثين المعاصرين يستعملون، في كثير من الأحيان، مصطلحات =التقنية+ و=البنية+ و=الشعرية+ وهم لا يقصدون غير الشروط التي يصير بها جنس الكلام الذي يتحدثون عنه جميلا. ولسنا نرى أنه يجب استبدال مصطلح البلاغة بهذه المصطلحات استبدالا مطلقا، بل نهدف إلى مجرد التنبيه على أن للمصطلحات دلالاتها الأصيلة التي ينبغي أن تُراعى، وأنه لا يصح استعمال مصطلح دخيل بدل مصطلح أصيل إلا حيث يثبت الدخيل كفايته والأصيل عجزه، أو يثبت الدخيل أنه هو الأنسب للمفهوم الذي استعمل لأجله. وإذا كان هؤلاء الباحثون لا ينون يُظهرون الثناء على عبقرية عبد القاهر والإعجابَ بكشوفه النقدية، فقد وجب تذكيرهم بأن عبد القاهر لم يكن تميزه الفذ بغير استنباطه القيّم لأسرار البلاغة.

المنارة للاستشارات
ww